

## الفصل الرابع

obeikandi.com

## العبودية

وحقيقة الإيمان هي العبودية التي لا تقوم إلا بعد معرفة الربوبية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والعبودية هي: - قبول الحق ، - ودفع الباطل ، - والتصرف حسب الحال المأمور به ، وقبول ما يكون منه خلف الستار.

فالعبد لا يعلم مشيئة الله المغيبة عنه ولكن يعلم ما هو مطلوب منه ، لذا عليه بذل الوسع في إنجاز ما طلب منه وما تقتضيه العبودية.

فآدم عليه السلام كان عليه تحقيق العبودية في الالتزام بالابتعاد عن الشجرة ، وليس له الاعتراض بذلك بأن الله قدّر عليه الخروج من الجنة علماً بأنه كان مخلوقاً ليعيش على الأرض وليس في الجنة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، [البقرة: ٣٠] لذا فالمخالفة (المعصية) تستوجب التوبة.

أما ما نجم عن هذه المخالفة من خروجه من الجنة فهي مشيئة الله تعالى المغيبة عنه. فعلى الإنسان فيما ابتلي فيه من معصية التوبة وكما تاب آدم عليه السلام ، وأما ما قدّر عليه من أقدار فعلية الرضا والقبول ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

فالصبر على قدر الله عبادة وطاعة مأجورة ، والاستغفار من الذنب (توبة وندم) مأجور كذلك ، وهذه هي العبودية ، والحكمة في ذلك ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

فإذا شهد العبد نفوذ الأقدار فيه وتحقق له عجزه وافتقاره لربه وحاجته لعصمة الله تعالى ، وأنه في كل حال مع الله لا بنفسه فلا يتأتى منه في هذه الحالة معصية (وقوع ذنب) ، وإذا استولى عليه حكم نفسه عندها يحجب بهذا عن ربه .

لأن ما تجري به الأقدار لغاية وقصد ولها جزاء وحساب ، فيجد العبد أن قضاء الله كله خير وعدل ورحمة ، وأما المقضي وهو المفعول المنفصل فهو قسمان :

أ - قسم عليه قبوله والرضا به . ب - قسم لا يجوز الرضا به .

مثال ذلك : قتل النفس المحرمة ، فمن حيث هو قضاء الله وقدره وانتهاء أجل المقتول فعلينا الرضا والتسليم ، أما من حيث إنه صدر عن القاتل وباشره بنفسه وكسبه وصدر عن اختياره وعصى ربه به فنسخط منه ولا نرضاه .

والإسلام : يعني التسليم لأمر الله ، فعلى المسلم أن يكون هُمة التصرف بما يرضي الله وحسب ما طلبه منه ، دون أن يتقدم برأي أو تعليل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [الحجرات: ١] .

فداود عليه السلام عندما تصرف حسب هواه (وهو الاشتغال بالعبادة) جانب العبودية والاستسلام لأوامر الله في سماع قول الخصم . ﴿وَطَنَّ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَّهُ فَأَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] ، عرف ذنبه فاستغفر ربه . ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥] وهذا ما سجله له ربه : حسن العودة والإنابة إلى الله .

فلا التفات لتوقع النجاح أو الفشل ولكن الالتزام بالعبودية دون إدخال رأي أو وجهة نظر ، فتكون الأقدار في صالح العبد ، وأن التوحيد والعبودية يستوجبان ألا يكون للمسلم رأي يتقدم أوامر الله ورسوله ﷺ بل الالتجاء إلى الله وطلب الهداية منه (فاستهدوني أهدكم) .

فالرسول عليه السلام لم يطلب من الله تعالى الرسالة ولا تغيير القبلة

ولكنه التجأ إلى الله تعالى يطلب منه الهداية ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبَ وَلَا أَلَايَمُنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، ﴿ قَدْ رَزَى نَفْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤] .

. وإبراهيم عليه السلام لم يضع خطة مستقلة لهداية قومه ، ولكنه كان يتصرف في كل لحظة حسب الحال ، فتارة كسر الأصنام ، وتارة أخرى قال: إني سقيم ونظر في الكواكب .

- ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ: «استعن بالله ولا تعجز» .

والمسلم يقرأ في كل صلاة: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، يطلب الهداية من الله لما يعترضه من أمور الدنيا والدين .

وكان السلف الصالح إذا عرضت عليهم مسألة في الفقه يسألون: هل حصلت؟ فإذا لم تكن قد حصلت فلا يجيبون عنها؛ لأنه عندما تحصل فإن الله تعالى سيهدي إلى حلها .

وهكذا يعرف المسلم التوحيد بأن ما يقع من أقدار قد يتطابق مع حوادث في أزمنة وأمكنة قد لا يكون بينها ارتباط إلا كونها حصلت في آن واحد ، فالموت بالأجل وارتباطه بحادثة سير أو مرض أو غيرها. . ، فالتعامل مع الأقدار بالتسليم والتعامل مع الحوادث بشكل مستقل؛ لأن الأقدار يقدرها ربنا برحمته وعلمه وحكمته لصالح العباد ، أما الحوادث فتقع بمشيئة الأفراد الذين شاء لهم ربهم أن تكون حسب نواياهم وضمن مشيئته في تأديهم أو تربيتهم ، وهكذا تجري الأمور بين حوادث ذات أهداف دنيوية علاقتها بنفوس البشر ومستوى إيمانهم ، وأقدار رب يريد الخير لصالح عباده .

فإنزال الله الملائكة في معركة بدر ليس له علاقة بالنصر أو الهزيمة بل هو لرفع معنويات المسلمين وزيادة إيمانهم ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . ﴾ [الأنفال: ١٠] .

وما حصل للمسلمين في معركة أُحُدٍ من عودة المنافقين ومخالفة بعض

المسلمين لتعليمات رسول الله ﷺ في أن لا يبرح الرماة أماكنهم . وغيرها ، ليس له علاقة بالنصر أو الهزيمة ، ولكن عرضها ربنا ؛ ليعرف المسلمون مدى التزامهم بتعليمات قائدهم رسول الله ﷺ وانحراف أفكارهم عن العبودية لله في عدم طاعة رسول الله ﷺ ، وهكذا فإن جميع ما حصل من الغم والنعاس ونزول المطر والوضع النفسي هو لتربية المسلمين وليس لذلك علاقة بنتائج المعركة ، فمن أعمال إلى أجر وثواب وتوبة ومغفرة . . إلخ .

- وعندما أمر الخليل بذبح ابنه وحيدته امتثل للأمر فحقق العبودية دون أن يوجد لنفسه بعض التفسيرات أو التبريرات ، وكذلك الذبيح إسماعيل - عليه السلام - حقق العبودية بالامتثال الكامل للرؤيا فلم يؤولها أنها غير ملزمة لأنها رؤيا ، بل كان الامتثال للأمر كاملاً .

فأثنى الله على هذا الامتثال وفدى الذبيح بكبش ؛ لأنه تعالى لا حاجة له إلى الذبيح ولكن لتحقيق العبودية الغالية عند الله .

- وموسى عليه السلام أراد أن ينصر أهل الحق على أهل الباطل ولكن جرت الأقدار أن يموت القبطي ، فاستغفر موسى - عليه السلام - ربه وعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، فحقق العبودية بالنصرة واستغفر ربه مما اقترفت يده .

وكذلك عندما ورد ماء مدين حقق العبودية بسقاية أغنام الفتاتين ، وطلب من الله أن يجعل على يده الخير فأكرمه الله بما قدر له من نكاح ابنة الرجل الصالح . ولما كلفه ربنا بالتوجه إلى فرعون بعد أن تجلى عليه في الطور وكلمه ربه بالرسالة ، لم يتردد في قبول الأمر بل طلب من الله المعونة بأن يجعل له وزيراً وهو أخوه هارون ؛ لأنه أفصح لساناً منه .

- وداود عليه السلام قام بالعبودية بالجهاد ، فأكرمه الله بقتل جالوت على يديه وإعطائه الملك .

- كذلك سليمان عليه السلام قام بالعبودية بتسخير ما سخر له من فهم

كلام النمل والطير وتسخير الجن والريح لخدمة الدعوة إلى الله تعالى ، واستفادته من مقولة الهدهد ، فأرسل الرسائل لملكة سبأ وأحضر عرشها ، ولما شعرت بأن لا قِبَلَ لها بقوته أسلمت ، فأكرمها الله تعالى بأن كان ذلك عن طريقه .

- وذو النون عندما ذهب مغاضباً قومه الذين دعاهم لعبادة الله فلم يجيبوه وقدّر الله عليه أن يتلعه الحوت ، ولما استغفر ربه وأناب حقق العبودية فعاد إلى قومه فدعاهم فأمنوا .

- إذاً فليس للأنبياء والرسول إلا الالتزام بما كلفهم خالقهم وتحقيق العبودية له بالدعوة إليه والصدق في العمل والقول حتى تحصل الهداية قدراً من الله لمن يستحقها ، فالأقدار تأتي في الأحيين التي وقتها الله تعالى .

والمؤمنون باقون على أثر الأنبياء في تحقيق العبودية والالتزام بما أمر الله ، وقبول قضاء الله وأقداره دون توقع نتائج مسرة أو ربط الأعمال التي يقومون بها عبوديةً لله بالأقدار الإلهية كما يتوقعون ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

فإنكار المنكر والأمر بالمعروف من العبودية ، والالتجاء إلى الله والصبر على البلاء من العبودية ، وقبول قضاء الله من العبودية ، وشكر الله على آلائه من العبودية أيضاً ، واعتزال أهل الباطل والبدع والضلالات من العبودية ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] ، والدخول في جماعة الصالحين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] من العبودية ، وأن لا تطلب المعجزات من الله أو من رسوله ﷺ هو عبودية ، وتصديق ما أمرا به من العبودية ، والثناء على الله بما أثنى به على نفسه وبما علمنا رسول الله ﷺ من العبودية ، وأن تطع الله تعالى بما شرع عن طريق رسوله ﷺ وليس عن طريق غيره من العبودية ، و من العبودية أن تتعامل مع الله تعالى على حسب ما جاءت به الآيات وليس مع غيره وعدم الالتفات للمغريات ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ [الماعون: ١] ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ٢١] ، ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] .

وأخيراً الإيمان بالغيب (حق اليقين) وترك عين اليقين ليوم الدين ،  
ولا ينجي العبد إلا عبوديته لله التي تحميه من الزلل وتغفر له ما وقع به من  
اللمم .

#### أقسام العبودية :

أ - عبودية عامة لأهل السماوات والأرض فالخلق جميعهم عبيد ربوبيته  
تعالى : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] .

ب - عبودية الطاعة والمحبة والاتباع لأهل طاعته ومحبته وهم عبيد  
ألوهيته ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨] .

- ومن مظاهر العبودية : السجود لله وهو قهري ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥] .

\* \* \*



## رؤية الفضل والشعور به (الحمد) وشكر النعمة

- يتتفي الكفر عن العبد إذا وصل العبد إلى مرحلة الشكر ، فالشكر هو التعبير الإيجابي عن الحمد .

والحمد: هو ثناء باللسان مقرون بشعور قلبي بالرضا بعد الشعور بالفضل والإكرام الإلهي ، والإنسان بين الشكر والكفر ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] .

والكفر هو حجب عين البصيرة عن رؤية الفضل الإلهي فلا يرى نعم الله وآلاءه ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي . ﴾ [الكهف: ١٠١] .

والحمد هو رأس الشكر ، إذ الشكر هو المظهر الخارجي والعملي للحمد ، كما الإسلام هو المظهر الخارجي والإيمان هو الشعور الداخلي ، لذا قال تعالى: ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣] . فمن عاين النعمة وعرفها وقدرها وعظمها فقد آمن ، ومن كتمها فقد كفر .

وحقيقة العبودية: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده بعد أن غمرت قلبه ومشاعره وظهر أثر نعمته في جوارحه ، ومن تمام نعمة الله على عبده أن يلهمه شكر النعمة ؛ لأن منفعة الشكر مختصة بالعبد ، ولقد قال العبد الصالح: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ . ﴾ [النمل: ١٩] .

والشكر الذي هو المظهر الإيجابي للحمد سبب لتوالي النعم واتصالها وزيادتها .

- فإذا استعظم العبد النعمة فقد حقق العبودية واستحلى الشدة فازداد قرباً ومحبة لربه وزاد شعوره بالافتقار إلى مولاه ، وزادت فاقته التي تتجدد بتجدد النعم ، فالغنى بالله والافتقار إليه سبب القرب إلى الله وليس باباً أعظم من التذلل إلى الله تعالى ، جاء في الأثر القدسي: عبدي اطلبني تجدني فإذا وجدته وجدته كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء .

وقال أحدهم: ماذا وجد من فقدك وماذا فقد من وجدك .. ؟

فإن نعم الله تعالى مصدرها باذل النعم وهو المحمود على أفعاله كلها بما امتنّ على عباده وأكرمهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِي اصْطَفَىٰ ﴾ [النمل: ٥٩] ، و﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] .

والاعتراف بالفضل الإلهي الذي يغمر القلب لا بد أن يفيض على الجوارح فيظهر حمداً على اللسان وشكراً بالعمل ، وهكذا يباهي ربنا ملائكته الذين أسجدهم لأبينا آدم فيظهر لهم فضل عباده .

والحمد شعور والشكر الوجه العملي ﴿ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣] ، ويظهر أثر الشكر: بمعاونة الخلق الذين هم عباد الله فيتقرب العبد إلى ربه بمعونة عباده والنصح لهم . كما يظهر الشكر: بالتحدث بالنعمة وتعريفها للعباد بينما غمطها كفر؛ ﴿ وَأَمَّا نِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] .

ولا يستطيع أحد أن يحيط بنعم الله ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

[النحل: ١٨] .

- والتسبيح: (وهو التنزيه عن العيوب والنقائص) مظهر من مظاهر الحمد وهو المأمور به وهو الملائم ، فالملائكة تسبح ﴿ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [غافر: ٧] .

والكون كله يسبح ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

[الإسراء: ٤٤]. والأمر للعباد بالتسبيح ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ...﴾ [الواقعة: ٧٤].

- والثناء على الله تعالى وهو أهل الحمد ، والثناء لا يكون إلا بما بينه الرسول ﷺ بالسنة: (سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) فلا يستطيع مخلوق أن يثني على ربه بشكل كافٍ وصحيح والأقرب لذلك الأنبياء الذين وعوا أكثر من غيرهم لذا نفتني أثرهم ونقلدهم؛ لأن كفر النعمة يستوجب عذاب الله ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

- والنعمة: إما تكون مقيدة أو مطلقة ، فالمطلقة هي المتصلة بالسعادة الأبدية وهي التي أمرنا أن نطلبها فهي مضافة لله تعالى مُسَدِّدُهَا والمؤمنون القابلون لها (محلها). ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

أما النعمة المقيدة وهي المشتركة مع جميع الخلق برَّهم وفاجرهم كافرهم ومؤمنهم ، كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسطة الجاه والزوجة والولد فهذه استدراج للكافر ومآلها العذاب والشقاء فهي بَلِيَّةٌ ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ رَبُّهُ...﴾ [الفجر: ١٦].

وهي للمؤمن نعمة يرقى بها إلى الله مرتين ، الأولى إذا تمتع بها وشكر الله عليها وعرفها من فضل الله ، والثانية عندما تكون سبباً في التعرف على أسماء الله الحسنى لما فيها من آيات مرتبطة بأسمائه تعالى .

ونعمة الأمن والإيمان من أعظم النعم؛ لأنها تتجلى في العيش والصحة وإبعاد الأذى ، إذ تكون المعاناة في عدم توافرها أو عدم انتظام الجوارح ، فيكون الصبر فيها له الأجر الأكثر ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وكذلك نعمة العافية وخاصة عافية القلب ، وفي الحديث: (سلوا الله العافية).

ففقد النعمة يكون مثوبة عند المؤمن يعادل أجره أجر شكر النعمة عند

وجودها ، وفقد النعمة (مثلاً: الفقر ، أو الصحة ..) إذا كان مثوبة يظهر في حسن الخلق عند العبد ، وإذا كان عقوبة يظهر بالتذمر وعصيان الرب تعالى والشكاية وسوء الخلق . فالله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال .

فما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في الثواب ، وأحسن منه تعففه ثقة بالله عز وجل ، فالساخط يحزن على المفقود وهو معذب ، ومن فرح بالموجود فهو حريص ، والحرص لأجل الدنيا مذموم ، ومن أتاه رزق من غير مسألة فردّه فإنه يردُّ على الله ، ومن سُرَّ بالمدح فهو معجب والعجب يحبط العمل ، وأمة محمد ﷺ (المسلمون) أكثر الناس حمداً لله ، ورسول الله ﷺ هو أحمد الخلق ، وقد اشتق اسمه من اسم الله الحميد الذي لا يستحقه إلا الله تعالى ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣] .

\* \* \*